بنظرة وداع حار ، وسما بيده يلوح ، ثم لوى عنقه يلملم نظراته ، وأقبل بها على حقائبه يحصيها فى انتباه ، وما إن اطمأن إليها حتى استوى فى جلسته يصلح من هندامه ، ويتعالى بهامته ، يستنشى الهواء الرخو فى زهو وخيلاء ..

وشارف المرسى . فاسترعته السفينة رابضة تتألق تحت وهج الشمس . مشدودة إلى اليابسة بأمراس غلاظ ، ومن مداخنها تتعقد سحائب سود تجارى فى مرقاها الهواء فى مسراه .

خطا الرجل صوب الباخرة يستوعبها فى نظرة خاطفة . ومن ثم ارتقى سلمها يفعم قلبه مسرة وحبور . . وعرج إلى سطحها وكأنه فى حلم ..

وطفق يجتاب أرجاءها يتعرفها فى حماسة الأطفال .

ما للساعة تتباطأ ؟...

مالهم لا يفكون وثاق الأسير !...

ما للمراجل الغالية لاتبعث قرقرتها أذانا بالمسير ؟

أما آن لبنت اليم أن تأخذ طريقها فى البحر مستعلية على الموج الدفاق ، تشقه بمقدمها المسنون كأنما هو سكين مشحوذة ، تغوص إلى الأعماق ، فتبقر أحشاءه فى يسر دون عناء . وهى منطلقة لاتتهيب هذا الخضم المواج وما يكتنفه من مخاطر وأهوال .